منزلة الحديث من الدين

وبحث فى تعارض الادلة السمعية والعقلية

بقـــلم

محمود شويل

المدرس بالمسجد النبوي الشريف

وإمارة المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستاذ الفاضل، العالم العامل، اللوذعي الكامل، سعادة محمد أحمد بك جاد المولى

السلام عليكم ورحمة الله ماسال يراع محقق، ورعف بلموم مدقق. أما بعد فهذه طرفة قلمية، وملحة فكرية. أفاضها الضمير وتفضل بها الجنان منذ أشهر، عقب مكاتبات دارت بيني وبين أمير البلاغة وسلطان الكلام الأمير شكيب أرسلان رأيت من واجبي الديني نحو كتابك (محمد المثل الكامل) الذي أتيت به معجزة في هذا الزمن الذى تنكر لاهل الدين، وتقلب للمتصفين به فأعليت شأوهم ورفعت ذكرهم، أن أقدم لك هذه البلالة، وأسرق إليك ذى العجالة. هدية لك اذ أنت رب عذرتها، ومفض بكارتها. فإذ قبلتها فالفضل منك واليك عافاك الله وجملك ممن يقدر الامور ويقبل ذوات الخدور والسلام

المدينه منورة في ١٨ رجب سنة ١٣٥٠ — محمود شويل

بسم الله الرحمن الرحيم

المدينة المنورة فى ٢٨ شوال سنة ١٣٤٩

الى سلطان الكلام ، أمير البيان ، ملك البلاغة ، حجة البيان الامير المعظم والمجاهد الاعظم ، أستاذنا الاجل الامير شكيب أرسلان حفظ الله مهجته : وأمد لنا مدته ، ليذود عن الاسلام ، ويدافع عنه الطغام آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد وصل كتابك الذى هو غرفة من بحارك ، ورشفة من أنهارك . فشملت من فنونه ، وتغذيت من مكنونه . ولقد صدرته باعتذار عن تعطيله ، واستعفاء عن تطويله

ثم ثنيت بالسبب الذى جعلك تفيض معتذراً وتكتب مستسمحاً ؛ وهو اشتغالك بالتحرير لتطعن فى صدور المستعمرين ، وتعرى عيوب الملحدين . ولقد تمنيت والله يامولاى أن لو كنت من ذوى اليسار فأترك عائلتى الكبيرة ، بطيبة المستنيرة . وأفد عليك مساعداً لك بما أستطيعه ، معيناً اياك بالذى أستطيعه ، أسوة بما يعود نفعه على المجاهدين بسقاية أو حراسة أو تحبير دواة أو

ارهاف يراعه ، ولكل أجر غاز وثواب مناضل .

ولكن ما العمل وقد قدّر الحكيم الخبير أن المال يكون عند مكتنزيه ، ويتكدس لدى عابديه . فالحمد لله ثم الحمد لله حيث لم يمنعنا ثواب النيات وما حشيت به منّا الطويات

ثم قلت : يصلني منك كتابان أول وثان ، فسلامة الاستاذ الامام انى لم أقل إنى أرسلت لفخامتك كتابين ، وان كان قد وقع مني ذلك فأكون قد أردت به كتابا سطرته لك بمناسبة كلمة أرسلانية ، تضمنتها احدى ارتساماتك الجوهرية حينما تكلمت على . لا منه فى الحجاز فقلت وسبب ذلك الله ثم جلالة الملك سيد العزيز ثم قلت وآثرت التعبير بثم اتباعا لشعور اخواننا النجديين فى العطف بثم . فكتبت لك رسالة سنية بينت لك فيها (مذكراً لا منتقداً ومنبهاً لا معترضاً) أن هذا المقام الحى المشروع فيه من أهل نجد ، وان ماعداه شرك نص عليه الصادق المصدوق فى أصح الخبر وأزجيت لك فيها بما فيه متنع . وآثرت ارسالها لحبنا السيد على طاهر ليزجى بها اليك . وكتابك هذا يشير لى أنها لم تصلك . والذى فهمته من خطابك هذا انها لو

لو وصلت لما أعرتها بالا متأثراً عا رواه بعضهم عن فاروق الامة رضي الله عنه ومنّ علينا بساعة من ساعاته آمين

واني أجلك أيها الاستاذ الاكبر عن أن يكون ذلك سبيل وصولك ومنهج قصدك ، حاشاك ثم حاشاك بل وألف حاشاك

أما ما يروى في ذلك عمن اذا سلك فجا سالك الشيطان فجا غيره فقد قتله علماء هذا الشان بحثاً وأتوا عليه بيانا موضحين مبينين فان شئته فارجع اليه ولا يكن حظك أيها الاستاذ من الدين الوقوف عند هذا الحد فان ذلك لم يكن شنشنة ملاذ الأمة الآن مولانا السيد رشيد ولا سجية له بل هو بطل هذا الشان وحجة الله على خلقه فيه في هذا الاوان أبقاه الله لدينه أحقابا وأحقابا آمين

واني أربأ باستاذنا الاكبر مثقف الكتاب أن لا يكون حده في هذا الشن ما أزجه الي وساقه من فضله على

فان ذلك يقف بنا في مقام التشكيك فيا تضمنه كتاب الله من قوله جل علاه « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » فان لم يكن تبيينه ﷺ في عُمرِ رسالته السعيد هو ما تضمنه

البخاري ومسلم والسنن والمستدركات والمسانيد والموطآت الذي قال فيه سبحانه « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » فأين يكون تبيينه ، أيكون فيما عليه أذواق الطريقيين ووجدانات الصوفيين واعتقادات الفلاسفة المتهافتين الذي يجب علينا أن نجاريهم في معتقداتهم ونحافظ على شعورهم ولو ذهبت أحاديث الرسول ﷺ كلها وبقي لنا القرآن عمومات ومجملات يأخذ منه عبد العزيز جاويش مايوافق حلق لحيته ليوافق الكزفته في رقبته واذا نباه الانسان يقول ان حلق اللحية لا يوجد في القرآن واذا أدلى اليه الانسان بحديث قطعي السند أو ظنيه يهز كتفيه وينأى بجنبه . اني أجلك أيها الاستاذ الاكبر وأجلك وأجلك عن أن تنتصب في هذا المقام

ليقل لي الاستاذ : هذا الدين الذي انتصب للذب عنه والمجاهدة له بأي شيء ثبت ؟ فاذا قلت انه ثبت بالقرآن فما معنى التبيين الذي أمر الله رسوله ﷺ به ؟ واذا قلت ان رسوله بين فما الذي بين به ؟ هل هي الاحاديث التي تضمنتها الكتب الصحيحة التي نقلت لنا القرآن أم شيء غير تلك الاحاديث ؟ واذا

حكمت على بعضها بالصحة وكان من نقل الذى حكمت عليه بالصحة ليكون هو البيان نقل غيره مما ملئت به الصحاح وتلقته الامة بالقبول ولم تر أنت الاسترسال فيه محافظة على شعور الشبان المارقين والبغام الملحدين فما يبقى لنا من دين ندافع عنه ونردّهم اليه ليكثروا قلته ويزيدوا فى عدده ويكونوا فى صفوف أهله

أرجو من السيد الاستاذ أن يجاوبنى بهدوء ويرأف بى فى الرد لانى رجل جامد جداً فى الاستمساك بما بينه الرسول ﷺ وما نقله الينا الثقات عن الثقات بالغين به الرسول المعصوم الموصوف بأنه لا ينطق عن الهوى از هو الا وحى يوحى

ولشدة جمودى وتمسّكى بالمبين المبين حقا لم أدن رقبتى لتقليد زيد وعمرو فيما يبديه رأيه ويصل اليه فكره ، بل لم أضع فى عنقى الاّ غلاً واحداً ، وهو الغل الذى كلفنى به مولاي سبحانه فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعو الرسول » وقوله « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم - فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنه

أو يصيبهم عذاب أليم » وفي غيرها من الآيات أمثالها

وهنا أيضاً أقول للاستاذ الملاذ : ماقدر المبين ياترى وما كميته هل يستطيع حدّه لي أو عده أو حصره حتى يكون لنا مرجعاً نرجع اليه فيما اذا أردنا أن نعرف ديننا . فان وعد مولاى بشيء من ذلك فما يكون قدر المبين في ثلاث وعشرين سنة منذ رسالته ﷺ الى انتقال روحه الى الرفيق الاعلى تنوعت فيها الامور عليه ﷺ وتتابعت فيها عليه الحوادث مابين غزوونضال وحج واعتمار وجهاد وانتقال وما لا يعلم كنهه الا خالق الليل والنهار واذا كان الاستاذ الحكيم شكيب قد أخبر وهو الصادق بأن آثاره تبلغ نحو الخمسة عشر ألف صحيفة وهو فذ عظيم من أفذاذ أمة محمد ﷺ في ٤١ سنة اذا فرضنا انه ابتدأ بجمع آثاره حين بلغ العشرين فكم تكون صحف نبي ختمت به الرسالة ونسخت بشريعته سائر الشرائع وأدهش بدينه العالم ، وبدل ظلمته نوراً ، وهمجيته حضارة ، وشقاءه سعادة في ٢٣ سنة ؟ أكل الحكم في ذلك الى الاستاذ الامام أمير البيان

وهاك أيها الاستاذ بعض أجوبة أريد بها تذكير سيد

الكتاب فأما عن قولك وأعتقد أن سيدنا عمر نهى عن كتابتها خوفا من الزيادة والنقصان والتحريف . فجوابه :

قال أبو عمر بن عبد البر فى الجزء الاول من جامع بيان العلم وفضله (ص ٦٨ طبع منير) : « من كره كتابة العلم انما كرهه لوجهين ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به ، ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب فلا يحفظ فيقل الحفظ ، كما قال الخليل رحمه الله :

ليس بعلم ما حوى القمطر   ما العلم إلا ما حواه الصدر

وقال أبو العتاهية :

من منح الحفظ وعى   من ضيع الحفظ وهم

وذكر ابن عبد البر بسنده قال قال أبو معمر فى الحفظ

يا أيها المضمن الصحائفا   ماقد روى يضارع المصاحفا
احفظ وإلا كنت ريحاً عاصفا

وقال اعرابى : حرف فى تامورك خير من عشرة فى كتبك

قال أبو عمر : التامور : علقة القلب . ثم قال بسنده الى الاصمعى قال سمع يونس بن حبيب رجلا ينشد :

استودَعَ العلم قرطاساً فضيعه   وبئس مستودع العلم القراطيسا

فقال يونس : قاتله الله ما أشد صيانته للعلم . قال أبو عمر : من ذكرنا قوله فى هذا الباب فانما ذهب فى ذلك مذهب العرب لانهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك ، والذين كرهوا كتابة العلم كابن عباس والشعبي وابن شهاب والنخعى وقتادة ومن ذهب مذهبهم وجبل جبلتهم كانوا قد طبعوا على الحفظ فكان أحدهم يجتزىء بالسمعة ، ألا ترى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول : انى لأمرّ بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا ، فوالله مادخل أذنى شيء قط فنسيته . وجاء عن الشعبي نحوه ، وهؤلاء كلهم عرب . وقال النبي ﷺ « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . وهذا مشهور أن العرب قد خصت بالحفظ الى أن قال ابن عبد البر : وليس أحد اليوم على هذا ، ولولا الكتاب لضاع العلم . وقد أرخص رسول الله ﷺ في كتاب العلم ورخص فيه جماعة من العلماء وحمدوا ذلك ، ونحن ذاكروه بعد هذا بعون الله

وقد دخل على النخعى شيء فى حفظه لتركه الكتاب . وذكر

الحلواني قال: حدثنا معاوية بن هشام وقبيصة قالا حدثنا سفيان عن منصور قال: كان ابراهيم يحذف الحديث ، فقلت له ان سالماً كاتب أبي الجعد يتم الحديث ؟ قال له: ان سالماً كتب وأنا لم أكتب . قال أبو عمر فهذا النخعي مع كراهيته لكتاب الحديث قد أقر بفضل الكتاب

﴿ باب ذكر الرخصة فى كتاب العلم ﴾

أخبرني عبد الله بن محمد ثم ساق سنده الى أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فتحت مكة قام رسول الله ﷺ فذكر الخطبة خطبة النبي ﷺ قال فقام رجل من اليمن - يقال له أبو شاه - فقال يا رسول الله أكتبوا لى فقال ﷺ « أكتبوا لابى شاه » يعنى الخطبة ، ثم ساق ابن عبد البر (من ص ٧٠ الى ص ٧٧) فى هذا الباب أحاديث مرفوعة وآثاراً عن الصحابة والتابعين والائمة أثبت ما يصح اثباته منها ، فيها الحض على كتابة العلم فان شئتها فعليك بها تجد فيها ما يوضح لك المقام وينير لك الطريق ويبين لك ما قيل فى عمر رضى الله عنه فيما اعتمدت عليه وأردت أن

تجعله سبباً لرد النشء المارق والضوضاء التى سار بينها وبين الدين مهامه فيح وأودية دوية

أما عن قولك : ولا تقدر أن تقول ان الوارد من الاحاديث لا بد من الاخذ به لانه قد ذكره ابن ماجه الخ . فأقول للاستاذ : خذها من مريد الخير لمن قام فى هذا الوقت العصيب منافحاً بقلمه عن اخوانه المسلمين

قال أبو عمر بن عبد البر فى الجزء الثانى من كتابه المذكور ص ١٨٨ :

﴿ باب موضع السنة من الكتاب وبيانها له ﴾ قال الله تعالى ذكره « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وقال « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » وقال « وانك لتهدى الى صراط مستقيم » وفرض طاعته فى غير ما آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل فقال « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

أخبرنا سعيد بن نصر ثم ساق سنده الى علقمة قال ان امرأة من بنى أسد أتت عبد الله بن مسعود فقالت له : انه لمنى انك

لعنت ذيت وذيت والواشمة والمستوشمة وانى قرأت ما بين اللوحين فلم أجد الذى تقول وانى لأظن على أهلك منها ، فقال لها عبد الله فادخلى فانظرى فدخلت فنظرت فلم تر شيئاً ، فقال لها عبد الله أما قرأت « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » قالت بلى قال فهو ذاك . ثم ساق بسنده عن ابن مسعود الذى قلت فيه ما قلت مثل ذلك كثيراً الى أن ساق بسنده الى جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « يوشك بأحدكم يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه وما كان فيه من حرام حرمناه ألا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله والذى حدثه » (وكأن الرسول ﷺ قد قصد بهذا الحديث الذى أصبح من الأمة بالدرجة التى لا ينبغى ردها كان وجد في كتاب مما تلقته الأمة بالقبول)

ثم ساق ابن عبد البر بسنده الى البخارى وفيه سفيان عن ابن المنكدر مرسلا قال قال رسول الله ﷺ « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ادرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » وفى رواية بسند

آخر بزيادة « ومالم نجد فيه فلا حاجة لنا به » وفى رواية ثالثة هذا المعنى بزيادة « ما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وان ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله ثم ساق » (الى ص ١٩٤) مالا يسع مسلما اغفاله وحسبنا في هذه الكلمة ما نقلناه

ثم نقول لحضرة الاستاذ على قوله : وهذا شيء لايمكن أن يسلم منه نقل أبداً واكتفاء بكتاب الله ثم ان الزبير وسعد ألم يكونا يحدثان وهما من العشرة وعبد الله بن مسعود كان اذا حدث عرق الخ . انى أربأ بالمجاهد الأكبر من أن يخوض هذا البحر الخضم احتشاماو أنفة بهؤلاء المرقة الذين لا يهمهم الا السير وراء الغربيين فيما يعود عليهم بالوبال فقط اتباعا لشهواتهم البهيمية لاغير ، ووالله ثم والله (ياشكيب) لمِسْكُ مثلك بطلا سميذعا بدينه أكسب عندنا من قناطير مقنطرة من أمثال أولئك الشبان الذين تريد أن تضرب لسواد عيونهم بجانب كبير من سنة الرسول الاعظم ﷺ المبين بها كتاب الله سبحانه . وما عليك أيها الاستاذ أن تفتح أنت ويعمى أعور غير مبال بدين الله مبتغ الهدى من سواه مريد

الحياة من دونه . وكأني بالسيد النبيل وقد عذب عن فكره ماملىء به الصحاح من رواية ابن أم عبد وسعد والزبير رضي الله عنهم حتى كتب ما كتب عن تأثر قوى أداه اليه غيرته على الاسلام حين رآه محتضراً ممزقاً كل ممزق بين أعدائه من متبعي غيره وبين مسلمي الجغرافية الذين كانوا شراً عليه ممن سواهم

ثم تنبيهاً على قولك : اني لا أقدر أن أبطل حكم العقل الذى لولاه لا نقدر أن نعرف الله ولا رسوله الخ ما جاء في عبارتك

أقول حاشا ان أبطل ان الله سبحانه انما خاطب بشرعه العقلاء أولي الالباب والحجى والكل يعلم أن لا تكليف إلا بعقل ولكن الذى أنازع الاستاذ فيه أن يكون اذا تعارض العقل والنقل يقدم العقل على النقل كيف وقد قال علي بن أبي طالب . لو كان الدين بالعقل لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره ولعمرى انها لقصمة ظهر كل معاند يريد التشغيب متأثراً بقول من دعي بحجة الاسلام أو وسم بالاستاذ الامام . وايم الله انى لاجل الامام الغزالي وان كنت أعتقد أنه لم يضرب بعطن في حقيقة الدين الذى جل عن أن يضرب فيه إلا بطرقه التي بينها الله على لسان

رسوله ﷺ ، وحجة الاسلام رحمه الله معروفة بضاعته فى هذا الشأن وهذا أجل كتبه الاحياء لاتكاد أن تجد فيها حديثاسلم من طعن ذوى العرفان إلا نزراً يسيراً جداً وأما الاستاذ الامام فما لنا وله رحمه الله ، والكل يعلم ماطلبه من حفظ مركزه القضائى الاهلى وما أدراك ما القضاء الاهلى حينما طلب ليتولى الافتاء بالديار المصرية ، وان كنا نجله ونحترمه على ماقام فيه نافخا فى بوق الاصلاح حينما كانت الامة مقبورة فى أجداث الخرافات والاوهام فرحمه الله لقد صار الى ما أسلف وقدم على رب كريم يجازى كلا بنيته ويعامل المصلح بما يليق بكرمه

وانى سأنقل للاستاذ الامام شكيب هنا مقالا فيما قيل فى العقل والنقل متوقيا فيه الحشو الذى لايليق بشتغل بال الاستاذ الامام لعلمى بأن وقته ثمين عليه وعلينا

قال شيخ الاسلام أحمد بن عبد السلام بن تيمية علم الاعلام :

والمقصود هنا الكلام على قول السائل اذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية الخ كما تقدم والكلام على هذه الجملة بنى على بيان ما فى مقدمتها من التلبيس فانها مبنية على مقدمات : أولها

ثبوت تعارضهما، والثانية انحصار التقسيم فيما ذكره من الاقسام الاربعة، والثالثة بطلان الاقسام الثلاثة. والمقدمات الثلاثة باطلة وبيان ذلك بتقديم أصل وهو أن يقال اذا قيل تعارض دليلان سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً فالواجب أن يقال لا يخلو اما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين واما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً. فاما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً وهذا متفق عليه بين العقلاء لأن الدليل القطعى هو الذى يجب ثبوت مدلوله ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان وأحدهما يناقض مدلول الآخر للزم الجمع بين النقيضين وهو محال

بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التى يعتقد أنها قطعية فلا بد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعى أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين فاما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين وان كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر فانه يجب تقديمه باتفاق العقلاء سواء كان هو

السمى أو العقلى فان الظن لا يدفع اليقين . وأما ان كانا جميعاً ظنيين فانه يصار الى طلب ترجيح أحدهما فايهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعياً أو عقلياً ولا جواب عن هذا الا أن يقال الدليل السمعى لا يكون قطعياً وحينئذ فيقال هذا مع كونه باطلا فانه لا ينفع فانه على هذا التقدير يجب تقديم القطعى لكونه قطعياً لا لكونه عقلياً ولا لكونه أصلا للسمع

وهؤلاء جعلوا عمدتهم فى التقديم كون العقل هو الاصل للسمع وهذا باطل كما سيأتى بيانه ان شاء الله

واذا قدر أنه لم يتعارض قطعى وظنى لم ينازع عاقل فى تقديم القطعى لكن كون السمعى لا يكون قطعياً دونه خرط القتاد

وأيضاً فان الناس متفقون على أن كثيراً مما جاء به الرسول ﷺ معلوم بالاضطرار من دينه كايجاب العبادات وتحريم الفواحش والظلم وتوحيد الصانع واثبات المعاد وغير ذلك

وحينئذ فلو قال قائل اذا قام الدليل العقلى القطعى على مناقضة هذا فلا بد من تقديم أحدهما فلو قدم هذا السمعى قدح فى أصله

وان قدم العقلى لزم تكذيب الرسول فيما علم بالاضطرار أنه جاء به وهذا هو الكفر الصريح فلا بد لهم من جواب عن هذا .
والجواب عنه أنه يمتنع أن يقوم عقلى قطعى يناقض هذا .

فتبين أن كل ما قام عليه دليل قطعى سمعى يمتنع أن يعارضه قطعى عقلى ومثل هذا الغلط يقع فيه كثير من الناس يقدرون تقديراً يلزم منه لوازم فيثبتون تلك اللوازم ولا يهتدون لكون ذلك التقدير ممتنعاً والتقدير الممتنع قد يلزمه لوازم ممتنعة كما فى قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ولهذا أمثلة منها ما يذكره القدرية والجبرية فى أن أفعال العباد هل هى مقدورة للرب والعبد أم لا فقال جمهور المعتزلة ان الرب لا يقدر على عين مقدور العبد واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره فأثبته البصريون كأبى على وأبى هاشم ونفاه الكعبى وأتباعه البغداديون وقال جهم وأتباعه الجبرية ان ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد وكذلك قال الاشعرى وأتباعه ان المؤثر فيه قدرة الرب دون قدرة العبد واحتج المعتزلة بأنه لو كان مقدوراً لهما للزم اذا أراده أحدهما وكرهه الآخر مثل أن يريد الرب تحريكه ويكرهه العبد أن

يكون موجوداً معدوما لان المقدور من شأنه أن يوجد عند توفر دواعي القادر وأن يبقى على العدم عند توفر صارفه . فلو كان مقدور العبد مقدوراً لله لكان اذا أراد الله وقوعه لزم أن يوجد لتحقق الدواعي ولا يوجد لتحقق الصارف وهو محال. وقد أجاب الجبرية عن هذا بما ذكره الرازى وهو أن البقاء على العدم عند تحقق الصارف ممنوع مطلقاً بل يجب اذا لم يقم معه سبب آخر مستقل . وهذا أول المسئلة وهو جواب ضعيف

فان الكلام فى فعل العبد القائم به اذا قام بقلبه الصارف عنه دون الداعي اليه وهذا يمتنع وجوده من العبد فى هذه الحال وما قدر وجوده بدون ارادته لا يكون فعلا اختياريا بل يكون بمنزلة حركة المرتعش . والكلام إنما هو فى الاختيارى ولكن الجواب منع هذا التقدير . فان ما لم يرده العبد من أفعاله يمتنع أن يكون الله مريداً لوقوعه اذ لو شاء لجعل العبد مريداً له فاذ لم يجعله مريداً له علم أنه لم يشأه . ولهذا اتفق علماء المسلمين على أن الانسان لو قال لا فعلت كذا وكذا ان شاء الله ثم لم يفعله أنه لا يحنث لانه لما لم يفعله علم أن الله لم يشأه

واحتج الجبرية بما ذكره الرازى وغيره بقولهم اذا أراد الله تحريك جسم وأراد العبد تسكينه فاما أن يمتنعا معاً وهو محال لان المانع من وقوع مراد كل واحد منهما هو وجود مراد الآخر فلو امتنعا معاً لوجدا معاً وهو محال أو يقعا وهو محال أو يقع أحدهما وهو باطل لأن القدرتين متساويتان فى الاستقلال بالتأثير فى ذلك المقدور الواحد والشىء الواحد حقيقة لا يقبل التفاوت فاذا القدرتان بالنسبة الى اقتضاء وجود ذلك المقدور على السوية وانما التفاوت فى أمور خارجة عن هذا المعنى واذا كان كذلك امتنع الترجيح

فيقال هذه الحجة باطلة على المذهبين أما أهل السنة فعندهم يمتنع أن يريد الله تحريك جسم ويجعل العبد مريداً لان يجعله العبد ساكناً مع قدرته على ذلك . فان الارادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المقدور فلو جعله الرب مريداً مع قدرته لزم وجود مقدوره فيكون العبد يشاء ما لم يشأ الله وجوده . وهذا ممتنع بل ما شاء الله وجوده يجعل القادر عليه مريداً لوجوده لا يجعله مريداً لما يناقض مراد الرب

وأما على قول المعتزلة فعندهم تمتنع قدرة الرب على عين
مقدور العبد فيمتنع اختلاف الارادتين فى الشىء الواحد وكلتا
الحجتين باطلة فانهما مبنيتان على تناقض الارادتين وهذا ممتنع
فان العبد اذا شاء أن يكون شىء لم يشاه حتى يشاء الله مشيئته
كما قال تعالى « لمن شاء منكم أن يستقيم — وما تشاءون الا أن
يشاء الله رب العالمين » وما شاء الله كان وما لم يشاء « يكن فاذا
شاءه الله جعل العبد شائياً له فهم بنوا الدليل على تقدير مشيئة الله
له وكراهة العبد له وهذا تقدير ممتنع . وهذا نقلوه من تقدير
ربين والهين وهو قياس باطل . لان العبد مخلوق الله هو وجميع
مفعولاته ليس هو مثلا لله ولا نداً . ولهذا اذا قيل ما قاله
أبو اسحاق الاسفرايني من أن فعل العبد مقدور بين قادرين
لم يرد به بين قادرين مستقلين بل قدرة العبد مخلوقة لله وارادته
مخلوقة لله والله قادر مستقل والعبد قادر بجعل الله له قادراً وهو
خالقه وخالق قدرته وارادته وفعله فلم يكن هذا نظير ذاك

وكذلك ما يقدره الرازى وغيره فى مسألة امكان
دوام الفاعلية وان امكان الحوادث لابداية له من انا اذا قدرنا

امكان حادث معين وقدرنا انه لم يزل ممكناً كان هذا لم يزل ممكنا مع انه لابداية لامكانه فان هذا تقدير ممتنع وهو تقدير ماله بداية مع انه لابداية له وهو جمع بين النقيضين ولهذا منع الرازى فى محصله امكان هذا

وهذا الذى ذكرناه بين واضح متفق عليه بين العقلاء من حيث الجملة ، وبه يتبين ان اثبات التعارض بين الدليل العقلى والسمعى والجزم بتقديم العقلى معلوم الفساد بالضرورة . وهو خلاف ما اتفق عليه العقلاء

يقول ناقله محمود : فليقارن حضرة الامير شكيب بما منحه الله من غريزة نادرة وبديهة طاهرة بين مانقل هنا من اتفاق العقلاء بعد ذلك التبيين المقدم من شيخ الاسلام الحاكم به ضرورة الحس السليم والميزان العدل و بين مانقله لى عن المرحوم الشيخ محمد عبده فى كتابه الوحيد الاسلام والنصرانية

ولا إخال الاستاذ شكيب الا معترفا بفضل شيخ الاسلام بعد تمعن مانقلته قبل تمعنا دقيقاً ليعرف به قيمة ذلك الامام نادرة زمانه حجة الاسلام حقاً على خلقه . ثم قال شيخ الاسلام :

وحينئذ فنقول ان الجواب من وجوه أحدها ان قوله اذا تعارض النقل والعقل اما أن يريد به القطعيين فلا نسلم امكان التعارض حينئذ واما أن يريد به الظنيين فالمقدم هو الراجح مطلقا واما أن يريد به ما أحدهما قطعي فالقطعي هو المقدم مطلقاً واذا قدر ان العقلي هو القطعي كان تقديمه لكونه قطعيا لا لكونه عقليا فعلم ان تقديم العقلي مطلقاً خطأ كما ان جهة الترجيح كونه عقليا خطأ

(الوجه الثاني) ان يقال لانسلم انحصار القسمة في ما ذكرته من الاقسام الاربعة اذ من الممكن أن يقال يقدم العقلي تارة والسمعي أخرى فأيهما كان قطعيا قدم وان كانا جميعا قطعيين فيمتنع التعارض وان كانا ظنيين فالراجح هو المقدم فدعوى المدعي انه لابد من تقديم العقلي مطلقا أو السمعي مطلقا أو الجمع بين النقيضين أو رفع النقيضين دعوى باطلة بل هنا قسم ليس من هذه الاقسام كما ذكرناه بل هو الحق الذي لاريب فيه

(الوجه الثالث) ان قدمنا النقل كان ذلك طعنا في أصله الذي هو العقل فيكون طعنا فيه غير مسلم . وذلك لان قوله ان

العقل أصل للنقل اما أن يريد به أنه أصل فى ثبوته فى نفس الامر أو أصل فى علمنا بصحته والاول لايقوله عاقل فان ماهو ثابت فى نفس الامر بالسمع أو بغيره هو ثابت سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته أو لم نعلم ثبوته لا بعقل ولا بغيره اذ عدم العلم ليس علماً بالعدم وعدم علمنا بالحقائق لا ينفى ثبوتها فى أنفسها . فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ هو ثابت فى نفس الامر سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه ومن أرسله الله تعالى الى الناس فهو رسول سواء علم الناس انه رسول أو لم يعلموا وما أخبر به فهو حق وان لم يصدقه الناس وما أمر به عن الله فالله آمر به وان لم يطعه الناس فثبوت الرسالة فى نفسها وثبوت صدق الرسول وثبوت ما أخبر به فى نفس الامر ليس موقوفا على وجودنا فضلا عن أن يكون موقوفا على عقولنا أو على الادلة التي نعلمها بعقولنا

وهذا كما أن وجود الرب تعالى وما يستحقه من الاسماء والصفات ثابت فى نفس الامر سواء علمناه أو لم نعلمه فتبين بذلك أن العقل ليس أصلا لثبوت الشرع فى نفسه ولا معطيا له صفة لم

تكن له ولا مفيداً له صفة كمال إذ العلم مطابق للمعلوم المستغني عن العلم تابع له ليس مؤثراً فيه ، فان العلم نوعان : أحدهما العملى وهو ما كان شرطا في حصول المعلوم كتصور أحدنا لما يريد أن يفعله فالمعلوم هنا متوقف على العلم به محتاج اليه . والثانى الخبرى النظرى وهو ما كان المعلوم غير مفتقر فى وجوده الى العلم به كعلمنا بوحدانية الله تعالى وأسمائه وصفاته وصدق رسله وملائكته وكتبه وغير ذلك . فان هذه المعلومات ثابتة سواء علمناها أو لم نعلمها فهى مستغنية عن علمنا بها

والشرع مع العقل هو من هذا الباب فان الشرع المنزل من عند الله ثابت فى نفسه سواء علمناه بعقولنا أو لم نعلمه وهو مستغن فى نفسه عن علمنا وعقلنا ولكن نحن محتاجون اليه والى أن نعلمه بعقولنا فان العقل اذا علم ماهو عليه الشرع فى نفسه صار عالما به وبما تضمنه من الأمور التى يحتاج اليها فى دنياه وآخرته و انتفع بعلمه به وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ولو لم يعلمه لكان جاهلا ناقصا

يقول كاتبه محمود . هنا أقف مع أستاذنا شكيب ليراجع قوله

والعقل هو قبل الدين ولا يمكن تحقيق الانسانية إلا بالعقل الخ عبارته التي جاءتني في كتابه الذي أناقشه فيه منبها مذكراً راجيا منه أن يدقق نظره النير في كلام شيخ الاسلام مقارنا بينه وبين كلام حجة الاسلام ثم يحكم متريثا كما هي سجيته الطيبة عافاه الله وأمده بمعونته

ثم قال شيخ الاسلام :

واما ان أراد أن العقل أصل في معرفتنا بالسمع ودليل لنا على صحته وهذا هو الذي أراده فيقال له : أتعني بالعقل هنا الغريزة التي فينا أم العلوم التي استفدناها بتلك الغريزة . أما الاول فلم ترده ويمتنع أن تريده ، لأن تلك الغريزة ليست علما يتصور أن تعارض النقل وهي شرط في كل علم عقلي أو سمعي كالحياة وما كان شرط في الشيء امتنع أن يكون منافيا له . فالحياة والغريزة شرط في كل العلوم سمعيها وعقليها فامتنع أن تكون منافية لها وهي أيضا شرط في الاعتقاد الحاصل بالاستدلال وان لم يكن علما فيمتنع أن تكون منافية له ومعارضة له

وان أردت بالعقل الذي هو دليل السمع وأصله المعرفة

الحاصلة بالعقل . فيقال لك من المعلوم انه ليس كل ما يعرف بالعقل يكون أصلا للسمع ودليلا على صحته ؛ فان المعارف العقلية أكثر من أن تحصر والعلم بصحة السمع غايته أن يتوقف على ما به يعلم صدق الرسول ﷺ وليس كل العلوم العقلية يعلم بها صدق الرسول ﷺ بل ذلك يعلم بما يعلم به أن الله تعالى أرسله مثل اثبات الصانع وتصديقه للرسول بالآيات وأمثال ذلك ، واذا كان كذلك لم يكن جميع المعقولات أصلا للنقل لا بمعنى توقف العلم بالسمع عليها ولا بمعنى الدلالة على صحته ولا بغير ذلك لاسيما عند كثير من متكلمة الاثبات أو أكثرهم كالاشعرى فى أحد قوليه وكثير من أصحابه أو أكثرهم كالاستاذ أبى المعالى الجوينى ومن بعدهم ومن وافقهم الذين يقولون العلم بصدق الرسول عند ظهور المعجزات التي تجرى مجرى تصديق الرسول علم ضرورى

فحينئذ ما يتوقف عليه العلم بصدق الرسول من العلم العقلى سهل يسير مع أن العلم بصدق الرسول له طرق كثيرة متنوعة كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع

وحينئذ فاذا كان المعارض للسمع من المعقولات ما لا يتوقف

العلم بصحة السمع عليه لم يكن القدح فيه قدحا فى أصل السمع وهذا بين واضح وليس القدح فى بعض العقليات قدحا فى جميعها كما أنه ليس القدح فى بعض السمعيات قدحا فى جميعها ولا يلزم من صحة بعض العقليات صحة جميعها كما لا يلزم من صحة بعض السمعيات صحة جميعها

وحينئذ فلا يلزم من صحة المعقولات التى تبنى عليها معرفتنا بالسمع صحة غيرها من المعقولات ولا من فساد هذه فساد تلك فضلا عن صحة العقليات المناقضة للسمع فكيف يقال انه يلزم من صحة المعقولات التى هى ملازمة للسمع صحة المعقولات المناقضة للسمع ، فان ما به يعلم السمع ولا يعلم السمع إلا به لازم للعلم بالسمع لا يوجد العلم بلسمع بدونه وهو ملزوم له والعلم به يستلزم العلم بالسمع والمعارض للسمع مناقض له مناف له ،فهل يقول عاقل انه يلزم من ثبوت ملازم الشىء ثبوت مناقضه ومعارضه

ولكن صاحب هذا القول جعل العقليات كلها نوعا واحداً متماثلا في الصحة أو الفساد

ومعلوم أن السمع انما يستلزم صحة بعضها الملازم له لاصحة البعض المنافى له والناس متفقون على أن مايسمى عقليات منه حق ومنه باطل وما كان شرطا فى العلم بالسمع وموجباً فهو لازم للعلم به بخلاف المنافى المناقض له فانه يمتنع أن يكون هو بعينه شرطا فى صحته ملازما لثبوته فان الملازم لايكون مناقضا ، فثبت أنه لايلزم من تقديم السمع على مايقال انه معقول فى الجملة القدح فى أصله فقد تبين بهذه الوجوه الثلاثة فساد المقدمات الثلاث التى بنوا عليها تقديم آرائهم على كلام الله ورسوله . فان قيل نحن انما نقدم على السمع المعقولات التى علمنا بها صحة السمع قيل سنبين ان شاء الله انه ليس فيما يعارض السمع شىء من المعقولات التى يتوقف السمع عليها ، فاذاً كل ماعارض السمع مما يسمى معقولا ليس أصلا للسمع يتوقف العلم بصحة السمع عليه فلا يكون القدح فى شىء من المعقولات قدحاً فى أصل السمع

(الوجه الثانى) ان جمهور الخلق يعترفون بان المعرفة بالصانع وصدق الرسول ليس متوقفاً على مايدعيه بعضهم من العقليات المخالفة للسمع والواضعون لهذا القانون كابى حامد والرازى وغيرهما

معترفون بأن العلم بصدق الرسول لا يتوقف على العقليات المعارضة له ، فطوائف كثيرون كأبى حامد والشهرستانى وأبى القاسم الراغب وغيرهم يقولون العلم بالصانع فطرى ضرورى ، والرازى والآمدى وغيرهم من النظار يسلمون أن العلم بالصانع قد يحصل بالاضطرار

وحينئذ فالعلم بكون الصانع قادراً معلوم بالاضطرار والعلم بصدق الرسول عند ظهور المعجزات التى يتحدى الخلق بمعارضتها وعجزوا عن ذلك معلوم بالاضطرار ومعلوم أن السمعيات مملوءة من اثبات الصانع وقدرته وتصديق رسوله ليس فيها ما يناقض هذه الاصول العقلية التى بها يعلم السمع بل الذى فى السمع يوافق هذه الاصول بل السمع فيه من بيان الأدلة العقلية على اثبات الصانع ودلائل ربوبيته وقدرته وبيان آيات الرسول ودلائل صدقه أضعاف ما يوجد فى كلام النظار فليس فيه ولله الحمد ما يناقض الادلة العقلية التى بها يعلم صدق الرسول ، ومن جعل العلم بالصانع نظريا يعترف أكثرهم بأن من الطرق النظرية التى بها يعلم صدق الرسول مالا يناقض شيئاً من السمعيات

يقول كاتبه محمود : ثم سار شيخ الاسلام شوطا بعيد المدى في هذا المضمار فيما لو أعطى للانسان عمر نسر وأخذ المداد من بحر وكان له يراع الغاب اقلاما وصحف الارض بين يديه لما استطاع أن يخلص مما أتى به ذلك العالم حقاً وانما أردت نقل المقصود منه بالذات لحضرة مولانا الامير وان شاء مزيد سبح في لجج هذا البحر الخضم المتلاطم فعليه بأن يطلب من صديقه الهمام مولانا الشيخ رشيد رضا كتاب النقل والعقل لشيخ الاسلام ليكون له سميرا فيفوز منه بغنيمة الرجوع الى الحق الذي طلب الله من خلقه السير فيه والوصول اليه منه ، ولا نقبل من الاستاذ شكيب أن يقف في هذا المقام موقف المقلد المحض وهو اتباع قول الغير بلا دليل ، فاذا وجد كلاما للغزالي أو للشيخ محمد عبده يستملحه ويجعله له دينا يدين به ويجاهد الخلق لاتباعه فيه

وما على العاقل الآن إلا أن يفتش عما ينقذ به نفسه ويخلص مهجته ، فاذا وصل الى ذلك وأراد أن يقوم بالدعوة اليه فيجب عليه التأسي بالنبي ﷺ فيما كان عليه حينما قام داعياً الى ربه مبلغاً توحيده

وأى رجل تحدثه نفسه الآن بأن يقدر على اصلاح غيره بغير الطريق التى درج عليها رسوله الاعظم محمد ﷺ وكل يعلم انه قام داعيا ومعه شيخ ومولى وغلام قرشي لم يبلغ الحلم بعد ، بعد ان كان وحده ﷺ زمنا ما وهو سيد العقلاء يسير بالوحى السماوى ويستنير بأنواره ولا زال كذلك حتى بلغ بأمته منازل تقصر عنها الاساطيل وكل ما يخيله العقل من قوى فبأى شيء كان ذلك كان باعتقاد أن النقل اذا تمارض مع العقل يقدم العقل لانه قطعى الدلالة لكونه عقليا ويرمى بالسمع لكونه ليس كذلك فيجب علينا والحالة هذه أن نأتى بشيء أحسن مما أتى به الرسول لان الامم الآن عقولهم مهذبة مستنيرة لايليق أن يؤخذوا بما أخذ به النبي ﷺ تلك الامم الوحشية الجاهلة

أنا لى حل واحد فى اصلاح الامة الاسلامية الجغرافية أريد أن أدلى به الآن ومن يسمع لى ويصغى الى باذنه وأنا بعيد عن مايسمونه عالماً متمدنا ومن يصل اليه صدى كلام رجل لم تثقفه الجامعات ولم ينل شرف شهادات الكليات

ولكن ما على وقد أمكنني أن يكتب الى من لوزان أثقف

عربي وأكتب قحطاني ترنو الى كلامه النواظر وتخضع لعزة أقواله الرقاب اذا أدليت بفكرتي فان وافق عليها أفذاذ النهضة الحديثة ورأوا فيها نفعاً لنهضتهم التي نهضوها لتخليص الاقطار ورد الامصار من يد مقتنصيها المتعلمين المخترعين الاقوياء

فلهم على ان وافقهم فكري ورأوا فيه مصلحة لخطتهم أن أقطع لهم على عهداً بما يريدونه مني على انى لا أظهر بذلك الفكر ولا أسنده الى بل أكل اليهم اسناده لمن يشاءون وهم فى حل مني لانى رجل لايهمني والله شيء الا العمل بكتاب الله وسنة رسوله وان تقتفي الامة آثارهما وتتبع منارهما فما الهدى والله الا بهما ولا السلامة تالله الا فيهما ويعلم ربي انه لا يهمني شهرة ولا اكتساب ثروة مادمت آكلا لابساً وذلك هين جداً على من أراده ووفق للوقوف عنده

أنا ان عشت لست أعدم قوتا

واذا مت لست أعدم قبرا

ذلك الفكر هو انه يجب على القائمين بهذه النهضة المباركة ان . . الله أن يعلموا ان القرآن قد قطع عهداً وهو كلام الله الذي

كل الخير فى كلامه ان ينصر المؤمنين ويقهر لهم عدوهم ويمكنهم فى الارض ويستخلفهم فيها وهذا وعد لا يتخلف ولا يمكن أن يتخلف لانه وعد من قوى متين عزيز حكيم . فعلى كل عامل الآن أن يقف مفكرا فى السبب الذى أوقعنا فى هذه المصيبة الدهماء فلا يجده الا مخالفتنا للقرآن الذى قطع الله الوعد فيه فما على كل عامل عاقل من المؤمنين الا أن يجمع رأيه مع اخوانه ويتعاهدوا كلهم على العمل بالقرآن وما كان عليه الرسول وأصحابه ويرمون بكل شيء دون ذلك فى هوة سحيقة سحيقة جداً حتى لا يظهر منها شيء بعد

وينظرون لهم قطراً أبعد عن الغوغاء فيجعلونه مركزهم ومدار عملهم ويفد على ذلك المركز كل من وجد فيه كفاءة للعمل بانتخاب من الامة المستعمرة أو بدون انتخاب فاذا حضر الى المركز يعرض على هيئته نفسه بما معه من دين وعلم ومقدرة فاذا وجد فيه كفاية يعطى له شهادة يسير بها الى وطنه فيشكل له مركزا بها يهتم فيه كل من كان على شاكلته ويكون عمل كل مركز فى كل قطر رد الامة الى القرآن والحديث بدون تدخل

فى السياسة ولا مخالطة في الادارة وفى هذه الاثناء يلتفت كل مركز الى احياء الثروات وتهذيب النفوس على الصناعات بجميع أنواعها ومتعلقاتها ويشتغل الكل هادئا فى اطمئنان وسكينة وينتدب من المركز الاعلى هيئات تفتيشية تفد على جميع الاقطار فتفتش بدقة وتعمل بتريث وهدوء فان حصل ذلك ولم تلم الامة شعثها وتجمع كلمتها فما ينبغى لعامل أن يعمل ولا لكاتب أن يشتغل

هذه فكرتى أعرضها على حضرة الاستاذ فان كانت صوابا فمن الله أو خطأ فمنى وحدى . والسلام عليك ورحمة الله ؟

محمود شويل

المدرس بالمسجد النبوي الشريف

ودار لمارة المدنية الجليلة

فهـــرس

صفحة